﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِۖ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾ [هود: 92]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تقديمُ المخلوقِ على الخالقِ بريدُ العذابِ ونداءُ العقابِ

لمّا أعلنَ قومُ شعيبٍ عليه السلام موقفَهم من دعوتِهِ بوضوحٍ جليٍّ، وبيَّنوا نيَّتَهُم بقتلِه، وأنَّ المانعَ من رجمِهِ وقتلِهِ رهطُهُ، ثمَّ ما كانَ من تخصيصِهم نفيَ العزّةِ عنهُ، أنكرَ عليهِم بطريقِ الاستفهامِ بما يُفهَمُ أنَّ رهطَهُ أعزُّ عليهِم منَ اللهِ وطاعتِهِ، بأن أعرضتُم عنهُ إعراضَ مَن يتركُ أمرًا خلفهُ ظهريًّا، ثمَّ هدّدهُم بأنَّ كلَّ ذلكَ لا يَخفى عليهِ سبحانهُ، فهو القادرُ المحيطُ بجليلِ أعمالِكُم وحقيرِها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾: أصل مادّتِهِ (ورى)، فالواوُ والرّاءُ والحرفُ المُعتلُّ: بناءٌ على غيرِ قياسٍ. وقولُهُم وراءَكَ، معناه: من خَلفٍ، وتركَهُ وراءَه؛ أي: خلَّفَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡ﴾ [الأنعام: 94]؛ أي: خلَّفتُمُوهُ بعدَ موتِكُم[2]، ويأتي وراءَ بمعنى: غير[3]، و﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ هنا بمعنى: خلفَكُم؛ أي: أهملتُمُوهُ، وأغفلتُمُوهُ، وكفرتُم به.

2) ﴿ظِهۡرِيًّا﴾: أصلُ مادّتِهِ (ظهر)، فالظّاءُ والهاءُ والرّاءُ أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على قوّةٍ وبُروزٍ. من ذلكَ: ظَهَرَ الشَّيءُ يَظهَرُ ظُهورًا فَهو ظاهِرٌ، إذا انكَشَفَ وبَرَزَ. والظِّهريُّ: كُلُّ شَيءٍ تَجعَلُهُ بِظَهرٍ؛ أي: تَنساهُ، كأنَّكَ قد جَعَلتَهُ خلفَ ظَهرِكَ، إعراضًا عنهُ وتَركًا لَهُ. قالَ اللهُ سُبحانه: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾[4]، واتَّخذَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(2) الرّاغب، المفردات: (ورى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ورى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).

حاجتَهُ ظِهريًّا: استهان بها، كأنَّهُ نَسَبها إلى الظّهر على غير قياسٍ، وأظهَرَ بحاجتِه، واظَّهَر: جعلَها وراء ظَهرِه[1] وظهيرًا؛ أي: من ناحيةِ الظّهر، كنايةً عن الإعراضِ[2]، ومعنى ﴿ظِهْرِيًّا﴾ هنا: أعرضتُم عنه، وتركتُمُوهُ، ونسيتُمُوهُ.

3) ﴿مُحِيطٌ﴾: أصلُ مادّتِه: (حوط)، فالحاءُ والواوُ والطّاءُ كلمةٌ واحدةٌ، وهو الشَّيءُ يُطيفُ بالشَّيءِ. فالحَوْطُ من حاطَهُ حَوطًا[3]، والإحاطةُ بالشّيءِ، استُعملت كنايةً عن العلم بالشّيء من جميعِ جوانبِه، وعن حفظِه، وعنِ التّمكُّنِ منه والقدرةِ عليه وإهلاكِه. فمن معانيه قولُهم: (حاطه): حفظَهُ وتعهّدَهُ. وأحاطَ بالأمر: أحدقَ به من كلِّ جوانبِه، حفظًا أو علمًا أو تمكُّنًا وقدرةً، أحرزَه كلَّه، وبلغَ علمُه أقصاه[4]، فـ﴿مُحِيطٌ﴾ هنا بمعنى: عالمٌ بأمورِهم، مُطلِّعٌ عليها، قادرٌ على إهلاكِهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

العـــزَّةُ لله وحدَهُ، وما دونَه فموضوعٌ باطلٌ

جاء جوابُ شعيبٍ ﷺ قومَه، بعد اعتراضِهم عليه، وتهديدِهم له، مُضمّنًا الإنكارَ عليهم فيما قالوا، فكيف يكونُ الرَّهطُ أعزَّ من خالقِ الرَّهطِ؟! يا قوم، أرهطي أكرمُ عندَكم وأعزُّ منَ اللهِ ربِّكُم؟! وتركتُمُ اللهَ وراءَكم مُتغافلينَ مُتناسينَ مُهملِينَ أحكامَهُ، حين لم تؤمنوا بنبيّهِ الّذي بعثَه إليكم، إنَّ ربِّي بما تعملون محيطٌ وعالمٌ، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالِكُم، وسيجازيكُم عليها في الدّنيا بالإهلاكِ، وفي الآخرةِ بالعذابِ، وهو القادرُ على ذلك، المُتمكِّنُ منه[5]، وفي هذه الآيةِ بيانُ أنَّ قولَ الحقِّ لا يمنعُ منه قرابة أو تهديد.

(1) ابن سيده، المحكم: (ظهر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوط).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حوط).
(5) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

من شأنِ المحاوراتِ الكلاميَّةِ الإجابةُ عنِ السُّؤالاتِ الضِّمنيّةِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عمّا سبقَه؛ لأنّه إجابةٌ لكلامهم الّذي حذّروا فيه شعيبًا من مخالفةِ دينِهم، على طريقةِ المحاوراتِ الّتي تأتي مفصولةً عمّا سبقَها، جريًا لها على نهجِ الاستئنافِ البيانيِّ، فأكّدَ لهُم أنَّ تعويلَهُ لا على عزّةِ رهطِه، بل هو مُتوكِّلٌ على اللّهِ مولاهُ ذي العزّةِ والجبروتِ، فالقصدُ منَ الخبرِ لازمُهُ؛ فليسَ رهطي أغلبُ لكم منَ اللّهِ، فليسَ بي حاجةٌ بمعاملتِكُم الدّالّةِ على أنّي غيرُ عزيزٍ عليكُم، ولا من قلّةِ قرابتي وضعفِهم غيرِ المانعةِ من رجمي إذا شئتُم[1]. أو أنّ الفصلَ لِما بينَ هذه الآيةِ وما قبلَها من شبهِ كمالِ الاتّصالِ؛ لأنّ السّامعَ لقولِ قومِ شعيبٍ يتطلَّعُ بنهمٍ إلى قولِه ﷺ على هذا السّفهِ والحماقةِ؛ فكانتِ الجملةُ إجابةً إلى ما يتطلَّعُ إليهِ السّامعُ من إجابةٍ، ويتوقُ إليهِ من ردٍّ[2].

فائدةُ تَكرارِ النّداءِ:

تنبيهُ المخاطَبين بالإلحاحِ للإفهامِ بعدَ الإحجامِ

أعادَ النَّظمُ ذكرَ النّداءِ في هذهِ الآيةِ بقولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ﴾ بعدَ أن كانَ التّعبيرُ بالنّداءِ من حصّتِهم في الآيةِ السّابقةِ، وفي إعادةِ النّداءِ تنبيهٌ لكلامِه، وأنّهُ مُتبصِّرٌ فيهِ[3] مُدركٌ أهمّيّتَهُ المُقتضيةَ الوعيَ والانتباهَ، ففي إعادةِ النِّداءِ إلحاحٌ في إفهامِ المنادى لعلَّهُ يرعوي عن غيِّه.

فائدةُ إضافةِ القومِ إلى النَّفسِ:

تلطُّفٌ مَشوبٌ بالتَّهكُّمِ

في إضافةِ القومِ إلى نفسِهِ في قولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ فائدةٌ دالّةٌ على التّهكُّمِ مُخالِفًا ما مرَّ من ندائِهِمُ الدّالِّ على التّلطُّفِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/121.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.

والاستعطافِ؛ ذلكَ أنّهُ قد قنطَ هنا من صلاحهم تمامًا[1]، والتَّهكُّمُ مأخوذٌ منَ السِّياق، إذ شأنُ إضافةِ القوم إلى النَّفسِ التَّلطُّفُ بالمخاطَبين، لكنَّه هنا أُشربَ ذلك التَّلطُّفَ المعهودَ تهكُّمًا؛ باعتبارِه العتابَ الأخيرَ قبلَ مجيءِ الخبرِ النَّذيرِ.

غرضُ الاستفهام:

من اعتزَّ بغيرِ الله ذلَّ وشأنهُ قلَّ ولسانهُ زلَّ

قولُه تعالى: ﴿أَرَهْطِيٓ﴾ استفهامٌ دالٌّ على الإنكارِ المشوبِ بالاستهجانِ من تصريحِهم الوقحِ؛ فاللّهُ سبحانهُ أعزُّ عليهِ من رهطِه؛ فهو مُعتزٌّ باللّهِ لا برَهطِه؛ فلا يُريبُهُ ألّا يكونَ رهطُهُ أعزّةً عليهم، وفي ذلكَ تهديدٌ لهُم بأنَّ مولاهُ تعالى ناصرُهُ ومعزُّهُ؛ فعزّتهُ بعزّةِ مُرسلِه سبحانهُ[2].

سرُّ التّعبيرِ بالرَّهط:

متابعةُ الخصم في غايتِه شرطُها تحقيقُ الحقِّ

في استعمالِ الرّهطِ في قولِه تعالى: ﴿أَرَهْطِيٓ﴾ دونَ الأهلِ دلالةٌ وغايةٌ، وهو أنّهُم أرادوا ابتداءً تقليلَ قومِه[3] بقولِهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ وتوهينَهُم؛ فالرّهطُ غايتُهُ عشرةُ أنفارٍ، فقد تابعَهُم ﷺ في قيلِهم إقرارًا بأنَّهم قلَّةٌ قليلةٌ، فقَلَبَ عليهمُ الكلامَ مُتسائلًا مُنكرًا صنيعَهُم: كيف تجعلونَهُم أعزَّ عليكُم منَ اللّهِ تعالى.

دلالةُ الإضافةِ:

الانتصارُ للهِ وحدَهُ دونَ القومِ والعشيرةِ

في إيرادِهِ الرّهطَ مُضافًا إلى ضميرِهِ ﷺ بقولِه تعالى: ﴿أَرَهْطِيٓ﴾ دلالةٌ على أنّ رهطَهُ هم الأقربونَ المُقرَّبونَ منهُم[4]، وفيه عدمُ الانتصارِ للقومِ أو العشيرةِ، بل الانتصارُ للّهِ وحدَهُ.

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ المفاضلةِ:

المقارنةُ بغرضِ بيانِ قبحِ صنيعِ مَن يُقدِّمُ المخلوقَ على الخالقِ

أوردَ الكلامَ من بابِ التّفضيلِ[5] في قولِه تعالى: ﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/362.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/423.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(5) جعل الاسم على صيغة (أفعل من) تفضيلًا لشيءٍ على شيءٍ آخر، كقولهم: (زيدٌ أفضلُ من عمرو)، وله عدّة أحكام مُفصلّة في كتب النّحو، يُنظر: السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 4/390.

عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ والمعنى: أنّكم نظرتُم إلى رهطي لأجلِ القرابةِ الّتي تجمعُنا، ولم تنظروا إلى ما هو أجدرُ من ذلكَ، وهو الحقُّ سبحانهُ، فهو أقربُ منهُم لي؛ بما امتنَّ عليَّ، وبما أظهرَهُ لي منَ الكراماتِ والمعجزاتِ[1]؛ فالحريُّ بتفضيلِ العزّةِ أن يكونَ اللّه تعالى لا رهطِي، فاستعمالُ صيغةِ التَّفضيلِ يُرادُ منها الموازنةُ بغرضِ تبشيعِ تقديم المخلوقِ على الخالقِ، والضّعيفِ على القويِّ، والمرزوقِ على الرّازقِ، وهذا في ميزانِ العقلِ فسادٌ، وفي منطقِ الفطرةِ فحشٌ عريضٌ.

غرضُ التّعبيرِ بصيغةِ المفاضلةِ ﴿أَعَزُّ﴾:

التّهاونُ بالرَّسولِ تهاونٌ بالمُرسِلِ

لمّا كانَ قولُهُم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ مُتعلِّقًا به عليه السلام وبرهطِهِ، وأنّهُم الأعزّةُ عليهم دونَهُ؛ فيُسألُ عن كيفيّةِ مُخاطبتِهم بقولِهِ تعالى: ﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟ والجوابُ عن ذلكَ: أنّ تهاونَهُم بهِ معَ أنّه النّبيُّ المُرسَلُ منَ اللّهِ تعالى، فلمّا عزَّ رهطُهُ عليهم دونَهُ كانَ رهطُهُ أعَزَّ عليهِم منَ اللّهِ سبحانَهُ[2] بمدعاةِ جهلِهم وكفرِهم.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

في مَواضِعِ التَّفخيمِ والتَّهويلِ يحسُنُ إدخالُ المهابةِ في النُّفوسِ

عبّرَ بالاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ مُؤثِرًا إيّاهُ على لفظِ الرّبوبيّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لِما يفيدهُ الاسمُ الجليلُ منَ الهيبةِ، وإدخالِ المهابةِ في نفوسِ السّامعينَ؛ فهو الاسمُ العَلَمُ الجامعُ للصّفاتِ الّذي يحيطُ بكلِّ شيءٍ علمًا واقتدارًا[3]؛ فالموضِعُ مَوضِعُ قوّةٍ وتمكُّنٍ، وتفخيمٍ وتهويلٍ وتعجيبٍ.

بلاغةُ الحذفِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مجازٌ بالحذفِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(2) الرّازيّ، أنموذج جليل، ص: 206، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/201.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.

على تقديرِ: أعزُّ عليكُم من نبيِّ اللهِ؛ لأنَّ جوابَهُ ﷺ هذا لا يصحُّ ولا يطابقُ لو كانَ قولُهُم: ما عززتَ علينا[1]، فالكلامُ واقعٌ فيه ﷺ.

الجوابُ البليغُ هو الّذي يُظهرُ غاياتِ الكلام لا الاكتفاء بظاهرِه

فقد دلَّ إيلاءُ ضميرِهِ حرفَ النَّفي على أنّ الكلامَ واقعٌ في الفاعل لا في الفعل، كأنَّه قِيلَ: وما أنتَ علينا بعزيزٍ، بل رهطُكَ هم الأعزّةُ علينا، ولذلك قالَ في جوابِهم: ﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولو قِيلَ: وما عززتَ علينا، لم يصحَّ هذا الجواب[2]، ففَهِمَ ﷺ مقصودَ الكلام، وهو أنَّهم يريدونَ بكلامِهِ الدَّعوةَ والإيمانَ باللهِ تعالى، فكان جوابُه بليغًا في إظهارِ الغايةِ الّتي احتواها كلامُهُم، وتركِ ما أظهروه.

معنى الواوِ ودلالتُها:

يـــزدادُ قـبـحُ الكفرِ إذا اقترنَ بالوقاحةِ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ دالّةٌ على الحالِ، والمعنى: أيكونُ رهطي أعزَّ عليكُم منَ اللهِ سبحانهُ، وأنتُم على تلكَ الصّفةِ؟ وهو حالٌ داخلٌ في حيّزِ الاستفهام[3]؛ أي: إنَّ الإنكارَ مُشتملٌ على تقديمِ الرَّهطِ على اللهِ تعالى، في حالِ اتّخاذِهِ ظهريًّا، وهو تشنيعٌ بعدَ تشنيعٍ.

نكتةُ التّعبيرِ بالاتّخاذِ:

كنايةٌ عن الدّوامِ عـــلى ســـوءِ الصّنيعِ

عبّرَ عن اعتناقِ غيرِ اللهِ ربًّا بفعلِ الاتّخاذِ ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ كنايةً عنِ الاستمرارِ والدّوامِ على مرتكبِهِم الشّنيعِ وإصرارِهِم عليهِ؛ لأنّ الاتّخاذَ "أخذُ الشّيءِ لأمرٍ يستمرُّ في المُستأنَفِ كاتّخاذِ البيتِ"[4]. وإيثارُ التّعبيرِ عنه بصيغةِ الماضي دونَ المضارعِ تسجيلٌ عليهم بالبتّ والقطعِ في الرّضا بأمرٍ ما كان ينبغي أنْ يُفكِّرَ فيه العاقلُ[5].

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 232، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 1/249.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/424.
(3) الباقوليّ، إعراب القرآن: 3/823.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/122.

دلالةُ التّعبيرِ بالإضمارِ دونَ الإظهارِ:

جاءَ بالمفعولِ الأوّلِ لفعلِ الاتّخاذِ مُضمَرًا[1]، وهو الهاءُ في ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ دونَ إظهارِهِ بلفظِ الجلالةِ مثلًا، وسرُّ ذلكَ أنَّ المفعولَ الأوّلَ، وهو الضّميرُ، يحتملُ أن يعودَ عليهِ سبحانهُ، ويحتملُ أن يكونَ على تقديرِ: أمرِ اللّهِ وشرعِه[2]، ويحتملُ أن يكونَ تقديرُهُ: ما جاءَ بهِ شعيبٌ؛ فأضمرَهُ ليقعَ على كلِّ مُحتمَلٍ، ولو عيّنَهُ لما كانَ مُحتَملًا.

تعدُّدُ الاحتمالاتِ مَطلبٌ مقصودٌ في الكتابِ العزيز

بلاغةُ الكنايةِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ كنايةٌ عن نسيانِ دينِ اللّهِ، أو الإعراضِ عنه؛ لأنّ الوراءَ هنا صالحٌ للنّسيانِ، والإعراضِ[3]، أو النّبذِ وراءَ الظّهورِ؛ لتصويرِ هؤلاءِ المُعرِضينَ عن ربِّهم، كمنَ يرمي وراءَهُ شيئًا غيرَ آبهٍ بهِ، معَ أنّهم خلقٌ من خلقِهِ[4].

تمثيلُ صورةِ المُعرِضِ عن ربّهِ وخالقِهِ كمن يرمي شيئًا وراءَ ظهرِهِ

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّة:

ويحتملُ لفظُ الوراء في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ الاستعارةَ التّمثيليّةَ بتشبيهِ صورةِ تركِهم لدينِ اللّهِ تعالى، وعدمِ الالتفاتِ إليه مع إقبالِهم على عبادةِ الأصنامِ بالهيّئةِ الحاصلةِ من صورةِ مَن جعلَ شيئًا خلفَ ظهرِهِ، وتلهّى عنه بغيرِهِ[5]. فهي صورةٌ تمثيليّةٌ حسّيّةٌ تتوافرُ على رونقٍ وبهاءٍ وتحريكٍ للخيالِ في تبشيعِ حالِ مَن يرمي شيئًا عزيزًا خلفَ ظهرِه، نسيانًا له، أو جهلًا به، أو ازدراءً واستهزاءً، فإنّ الإنسانَ إذا جَهِل شيئًا عاداه. وأيًّا كانَ التّصويرُ البلاغيُّ في الجملةِ، فإنّ المُرادَ منها تسفيهُ أحلامهم، وخيبةُ رجائِهم، والسّخريةُ منهُم، والتّشنيعُ عليهم[6].

إذا جهلَ الإنسانُ شيئًا عاداه

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/379.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/203.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/121.
(4) عبد السلام الرّاغب، وظيفة الصّورة الفنيّة في القرآن، ص: 111.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/121 - 122.
(6) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/122.

فائدةُ الحالِ بعدَ الظَّرف:

الحالُ تُؤكِّدُ إغراقَ الكافرِ في النّسيانِ والغفلةِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ يجوزُ أن يقعَ حالًا من ﴿ظِهْرِيًّا﴾[1]، ويكونُ من بابِ الحالِ المؤكِّدةِ، ويكونُ المعنى: إنّكُم اتّخذتمُوهُ وراءَ ظهوركُم إغراقًا وتحقيقًا لمعنى النّسيانِ؛ لاشتغالِكُم بالأصنام عن معرفتِهِ سبحانهُ، والميلِ عن تعرّفِ صفاتِهِ[2].

والتّعبيرُ بقولِهِ: ﴿ظِهْرِيًّا﴾ غبَّ قولِهِ: ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ تحقيقٌ لهُ وتوكيدٌ؛ لتقاربِهما في المعنى فإنّكُم جعلتُمُوهُ كالشّيءِ الغائبِ المَنسيِّ، ولم تجعلوهُ نصبَ أعينكُم لنسبتي إليهِ عبدًا ورسولًا[3].

براعةُ التّعبيرِ المجازيّ في قولِهِ تعالى: ﴿ظِهْرِيًّا﴾:

تنوُّعُ التّوجيهاتِ البيانيّةِ دليلُ الثّراءِ والغناءِ اللّفظيّ

التّعبيرُ في قولِهِ تعالى: ﴿ظِهْرِيًّا﴾ إمّا على حذفِ مضافٍ؛ أي: اتّخذتُم أمرَهُ ظهريًّا، ومعناهُ أن يكونَ مَتروكًا موهونًا منبوذًا، كمَن يلقي شيئًا خلفَ ظهرِهِ، ولا يعبأُ بهِ، وهو منسوبٌ إلى الظّهرِ[4] كنايةً عن النّسيانِ والتّركِ، وإمّا أن يكونَ استعارةً؛ فمَنْ وضعَ شيئًا وراءَ ظهرِهِ كانَ لنسيانهِ أحرى لقلّةِ مُشاهدتِهِ ومعاينتِهِ[5]، فهو تشبيهُ النّاسي بمَن يضعُ شيئًا وراءَ ظهرِهِ، فهي استعارةٌ تمثيليّةٌ، إذِ الرّؤيةُ طريقُ العلمِ والتّذكُّرِ، وإمّا أن يكونَ التّعبيرُ بالظّهريِّ من بابِ الكنايةِ عن صفةِ النّسيانِ، وهي توجيهاتٌ تلتقي في ذَمِّ أولئك الغافلينَ عن ذكرِ اللّهِ تعالى.

علّةُ الفصلِ:

تعليلُ الكلامِ رونقُ الفكرِ وبهاءُ العقلِ

فُصِلَت جملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها استئنافٌ، وهي تعليلٌ لمفهومِ الجملةِ السّابقةِ المستفهَمِ بها إنكارًا عن عزّةِ رهطِهِ عليهِم منَ اللّهِ الّذي يُتوكّلُ عليهِ ويُستنصَرُ بهِ[6].

(1) العكبريّ، التّبيان: 2/712.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(4) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/514.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.

دلالةُ التّأكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

تهديدٌ مُؤكَّدٌ لهؤلاءِ الكفرةِ النّاكبينَ عن طريقِ الحقِّ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ توكيدُ المسندِ إليهِ بحرفِ التّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾؛ لأنّ الجملةَ تتوافَرُ على تهديدٍ كبيرٍ لهؤلاءِ الكفرةِ النّاكبينَ عن طريقِ الحقِّ والهدى؛ وأنّه أحاطَ علمًا بأعمالِهم السّيّئةِ[1]، فلا يبقى شكٌّ في وقوعِ العذابِ عليهِم بعدَ هذا التّهديدِ المُؤكَّدِ، للمُبالغةِ فيهِ.

نكتةُ التّعبيرِ بالرّبوبيّةِ:

مَن نظرَ في المصالحِ هو القادرُ على تولّي الأولياءِ وقطعِ دابرِ الأعداءِ

التّعبيرُ بلفظِ الرّبوبيّةِ دونَ اسمِ الجلالةِ (اللّه) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾؛ لأنَّ الرّبَّ هو النّاظرُ في مصالحِ شعيبٍ عليه السلام، ومدبّرُ أحوالِهِ ومُربّيهِ الّذي يربّيهِ فيوصلهُ إلى الكمالِ المطلوبِ؛ فيكونُ ذلكَ أطمعَ لهُ، وهذا من عميمِ فضلِهِ وامتنانِهِ على شعيبٍ عليه السلام.

قيلَ لابنِ عرفةَ: هلّا استبدلَ لفظَ الرّبوبيّةِ بلفظٍ دالٍّ على العظمةِ والقهرِ من مثلِ (مولاي) أو (اللّه) أو نحوِهِ؟ فقالَ: الّذي نصرَكَ وأيّدَكَ على عدوّكَ فقدْ نالتكَ رحمتُهُ، كما رحمَ شعيبًا[2].

نكتةُ الإضافةِ في قولِهِ تعالى: ﴿رَبِّي﴾:

الاعترافُ بالإحسانِ طريقُ النّجاةِ وسبيلُ الحمايةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ أضافَ لفظةَ الرّبِّ إلى ضميرِهِ عليه السلام، ولمْ يضفهُ إلى ضميرِهِم بأن يقولَ: (ربّكم)، وذلك من بابِ الاعترافِ بفضلِهِ، وأنّه المُحسِنُ إليهِ[3] بأنِ اختارَهُ وحباهُ بالرّسالةِ، وأنعمَ عليهِ من فضلِهِ، ونصرَهُ على أعدائِهِ الظّالمينَ.

كما أنَّ فيهِ إشارةً إلى أنّه يحميهِ ويحفظهُ منهم؛ فهو الّذي أنشأهُ وربّاهُ، وهو المُتكفِّلُ بحمايتِهِ وحراستِهِ[4].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/321.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/367.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3744.

معنى الباءِ ودلالتُها:

إحاطتُهُ تعالى بالأعمال إحاطةُ ملازمةٍ وإرصادٍ

الباءُ الدّاخلةُ على (ما) في قولِه تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ دالّةٌ على الإلصاقِ[1] والملازمةِ، في إشارةٍ إلى أنّه تعالى محيطٌ بأيّ عملٍ تعملونهُ على الغايةِ والتّمكُّنِ منَ الإحاطةِ به كالشّيءِ الّذي يلاصقُ شيئًا ويلازمُهُ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

تـجـدُّدُ أعـمـال الباطلِ مُحاطةٌ بقدرةِ اللهِ تعالى

عبّرَ عن فعلِ العملِ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، وقصَدَ من ذلكَ إفادةَ معنى دوام هذا الأمرِ وتجدُّدِه واستمرارِه، فهم مستمرُّون في أعمالِهم الباطلةِ، واللّهُ ﷻ محيطٌ بهم وبأعمالِهم المتجدِّدةِ، وفيها إشارةٌ إلى إمكانِ تجدُّدِ هذا المعنى وجريانِه في كلِّ زمانٍ لا يقتصرُ على زمنٍ مضى أو زمنٍ آتٍ؛ فالحقُّ سبحانهُ محيطٌ بما يعملُ الظّالمونَ إحاطةً مُتجدِّدةً بتجدُّدِ أعمالِهم ودوامها.

قوله تعالى: ﴿مُحِيطٌ﴾ بينَ المجازِ والاستعارةِ:

التّـعـريـضُ بغرضِ التّهديدِ بـالـعـقـابِ الشّاملِ

عبّرَ بوصفِ المحيطِ، وهو الفاعلُ بما يعملونَ، والأصلُ في الإحاطةِ حصارُ شيءٍ شيئًا من جميعِ الجهاتِ، إلّا أنّهُ استُعملَ معَ العلمِ مجازًا، وهي من بابِ المجازِ المُرسَلِ؛ "لأنَّ الإحاطةَ حقيقةٌ في الأجسامِ كإحاطةِ الجدرانِ، فإحاطةُ اللّهِ بالأعمالِ مجازٌ عن علمِها، وإدراكِها بكمالِها"[2]. أو من بابِ الاستعارةِ التّبعيّةِ شبّه فيها علمَ اللّهِ بكلِّ شيءٍ بإحاطةِ الظّرفِ بالمظروفِ[3]. فإحاطتُه تعالى هنا هي إحاطةُ علمه بأعمالِ الكافرينَ، بحيث يشملُ علمُه جميعَ ما يعلمُ في غرضٍ ما، فالإحاطةُ بمعنى الشّمولِ، ويكونُ الوصفُ

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/87.
(2) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 13/245.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/122.

﴿مُحِيطٌ﴾ تعريضًا بهم بغرضِ التّهديدِ؛ فإنَّ مَن يعلمُ جميعَ الأعمالِ يوشكُ أن يعمَّ المُذّنبين بالعقابِ[1] الشّاملِ، فإنَّ ذكرَ الإحاطة يُناسبه التّلميحُ إلى العقوبةِ الشّاملةِ.

بلاغةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ:

مبالغة في إحاطةِ علمهِ تعالى بأعمالِهم جليلِها وحقيرِها، إنفاذًا وإبطالًا

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على الخبرِ ﴿مُحِيطٌ﴾؛ والأصلُ أن يكونَ الكلامُ: إنَّ ربِّي محيطٌ بما تعملونَ، وإنّما قدَّمَهُ لإرادةِ المبالغةِ في إحاطةِ علمِه تعالى بأعمالِهم جليلِها وحقيرِها؛ فهو مُحيطٌ مُقتدرٌ في أيِّ فعلٍ من أفعالِهم إنفاذًا وإبطالًا[2]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ أعمالَهم مخصوصةٌ بالتَّهديدِ بالعقابِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفعلُ والعملُ:

الفعلُ أعمُّ من العملِ، والعملُ هو الإحداثُ بقصدٍ وعلمٍ

الفِعلُ لفظٌ عامٌّ يدُلُّ على إحداثِ شَيءٍ من عَمَلٍ وغيرِه[3]، فهو مُطلَقُ التَّأثيرِ من جهةِ مُؤَثِّرٍ[4] سواء كان عن سببٍ أو لا، ويُقالُ لِما كانَ بإجادةٍ وبدونِها، ولِما كان بِعلمٍ أو غيرِ علمٍ، وقَصدٍ أو غيرِ قَصدٍ[5].

وأمّا العملُ فهو عبارةٌ عن إيجادِ الأثرِ في الشَّيءِ مع امتدادِ زمانٍ، ولا يُقالُ إلّا لِما كانَ بقصدٍ وعلمٍ دون ما لم يكنْ عن قصدٍ وعلمٍ، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25] فعبَّرَ عن ذلك بالعملِ؛ لأنَّه لا يكون إلّا بقَصدٍ وامتدادِ زمانٍ. لذلكَ يُقالُ: إنّ فلانًا يعملُ الطّينَ خزفًا، ولا يُقالُ يفعلُ ذلكَ، فالعملُ يكونُ بمعنى الإحداثِ[6]، وأصلُ العملِ في اللّغةِ: الدّؤوبُ، وهو أخصُّ منَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/152.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(4) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(5) المناويّ، التّوقيف على مُهمّات التّعاريف، ص: 262.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 135.

الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ قد يُنسبُ إلى الحيواناتِ الّتي يقعُ منها فعلٌ بغيرِ قصدٍ. ومن هنا كان اختيارُ لفظ العملِ مقصودًا في الآية؛ لدلالتِهِ على ما كان بعلمٍ وقصدٍ.

(محيطٌ) و(عليمٌ):

الإحاطةُ إطافةٌ من جميعِ الجهاتِ علمًا وقدرةً، والعليمُ مُقيّدٌ بالمعلوم

عبّرَ عن صفةٍ من صفاتِهِ تعالى بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، وهي صفةُ الإحاطةِ، ولمْ يقُلْ: إنّ ربّي بما تَعملونَ عليمٌ، فثمّةَ فرقٌ بينَ العالم بالشّيءِ والمحيطِ بهِ؛ فـ"أصلُ المحيطِ: المطيفُ بالشّيءِ من حولِهِ بما هو كالسّورِ الدّائرِ عليهِ يمنعُ أن يخرجَ عنهُ ما هو منهُ، ويدخلَ فيهِ ما ليسَ فيهِ، ويكونُ من قبيلِ العلم، وقبيلِ القدرةِ مجازًا"[1]؛ فالإحاطةُ صفةٌ دالّةٌ على المبالغةِ؛ لأنّها من جميعِ الجهاتِ؛ ولأنّها دالّةٌ على الإحكام، وفيها تخويفٌ عظيمٌ بالغلبةِ، أمّا العلمُ فتقييدُهُ بالمعلوم، فيُقالُ: عليمٌ فيكونُ من جهةٍ واحدةٍ، وهو فرقٌ واضحٌ، وأنّ المحيطَ دالٌّ على الشّمولِ في العلم؛ فلا يخفى عليهِ شيءٌ علمًا وقدرةً[2]. ولهذا اصطُفي في سياق الآية.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 94.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/203.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»